البنيـة والوظيفـة وفاعليـة الإعــراب في اللّغـة العربيّــة
- مقاربـة لسانيــة وظيفيــة -

Structure, Function and the Effectiveness of Syntax in Arabic : A Functional Linguistic Approach

د. أمينـــة حسـني1،*
1المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة - الجزائر amina.ling.ens@gmail.com

تاريخ الإيداع: 05/ 09/ 2022 تاريخ المراجعة: 22/ 12/ 2022 تاريخ النشر: 31/ 12 /2022

ملّخص:

عالجت الوظيفية الأوروبية وخصوصًا عند رائدها البارز أندري مارتني اللّغة الإنسانية على أنّها رسالة ذات قيمة هامة في المجتمع وظيفتها تحقيق التبليغ والتواصل وذلك من منطلق أنّها بنية ونظام تتماسك وحداته لتشكّل نسقًا لغويًا مستّقلاً عن كلّ سياقٍ خارجي، يحكمه الاقتصاد في اللّسان ويُساهم فيه الإعراب لتحقيق الغرض من وجود اللّغة، وهي جميعًا قضايَا وظيفية عالجها العُلماء العرب من أمثال الجرجاني وابن جنّي وسيبويه منذ قرون وناقشوها وهم يدرسون اللّغة العربية بتمعنٍ واجتهاد خدمةً للقرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: الإعراب، الوظيفة، البنية، الاقتصاد اللّساني، الرّتبـة.

Abstract :

European functionalism, namely its pioneer Andre Martinet, dealt with the human language as a message having an important value in society whose function is to achieve communication based on the fact that, according to them, language consists of a structure and a system of coherent units forming a linguistic system which is independent from any external context and which is governed by the economy of language along with the syntax contribution to achieve the purpose of the existence of language. All these concepts are functional *issues that were dealt with and discussed by Arab scholars such as Al-Jurjani, Ibn Jinni and Sibawayh centuries ago while studying Arabic in a careful and diligent way for the sake of a good understanding of the Noble Qur'an.*

***Key words** : Syntax, function, structure, linguistic economy, rank.*

* المؤلف والمراسل.

مقدّمة:

إنّ مفهوم الوظيفة يعدُّ من أكثر المفاهيم الإجرائية في الدّراسات اللّسانية الحديثة، والاهتمام بهذا المبدأ يتحدّد في الأعمال البنوية بكونه ذلك العمل أو الدور الّذي تقوم به كلّ وحدة لغوية في بناء العبارة. وقد انطلق اللّسانيون في دراساتهم من الاستجابة للحاجيات المعرفية والمشكلات المنهجية الّتي أدّت فيما بعد إلى قيام بحوث لسانية تسعى إلى تبني الشرح والتّفسير آليتين لدراسة اللّغة إلى جانب الوصف.

إنّ الوقوف على القضايا المنهجية والعلمية الّتي أفرزها البحث اللّساني الوظيفي الّذي تقعَدَّت أصوله وتوّضحت معالمه عند العالم الفرنسي مارتني. وهو ينقل أعمال نادي براغ الفونولوجي إلى فرنسا وفيها شكّل مدرسته اللّسانية الوظيفية الّتي طوّرت مفاهيم البنوية وأعطتها طابعًا جديدًا، إذْ درس إلى جانب الصوت قضايا الكلمة والتركيب انطلاقًا" من الاهتمام بمبدأ الوظيفة (Fonction) مستقلا عن أيّ اعتبار تاريخي يُمكنها أن تحصل على قيمة تفسيرية (Valeur explicative) وليست فقط وصفية (Descriptive) .[1] "

وعلى طرف مُقابل ومع اختلافٍ في التصور وتباين في المنهج، طُرحت فكرة الوظيفة ضمنيًا دون التّصريح بها في الدّراسات النّحوية العربية منذ قرون من الزمن ؛ وكان للأوائل من النُّحاة واللّغويين فضل السّبق إلى طرحِ عديدٍ من القضايَا والمفاهيم الّتي لم تصل إلى تحديدها اللّسانيات الحديثة إلاّ في مطلع القرن العشرين وما بعده، وعليه فإنّنا نهدف في مقالنا هذا إلى إبراز بعض المباحث العلمية عند الفريقين العربي القديم والغربي الحديث ثمّ نُحاول أن نقارب بينها بعرض ما تشابه واختلف من مُنجزات مدرسة مارتني ومعطيات النّحو العربي، ثمّ نحدّد ما انفردت به لغة الضاد من قضايا وظيفية لا نجد لها نظيرًا في المدرسة اللّسانية الفرنسيـة.

أولا / البنية الوظيفية والنَّظم عند الجرجاني:

انطلقت الوظيفية الفرنسية باعتبارها مدرسة انبثقت عن بنوية سوسير في دراسة اللّغة من مبدأ أنّها بنية ونظام وأنّ وحدات هذا النّظام لا يتحقّق وجودها إلاّ بعلاقة بعضها ببعـض.

ولا يُفسّر الوظيفيون الظاهرة بالواقع الفيزيائي وإنّما من خلال الدّور الّذي تقوم به الوحدات اللّغوية في سلسلة الكلام، وتلك السّمة التّمييزية الّتي تظهر في العبارة (énonce) أفقيًا لتفسير العلاقات النّحوية التّركيبية وعموديًا عن طريق الاستبدال والتقابل لتحديد فئة الكلام ووظيفة الوحدة الدّالة. فالوظيفية البنوية إذًا تعتمد في بحوثها اللّسانية على دراسة العبارة المُنجزة فعلاً (Les énoncés réalises) من خلال الكلام، وانطلاقًا من مدوّنة محدودة (Un corpus) سعيًا منها إلى إيجاد نظرية وظيفة للّغة باعتبارها واقعة اجتماعية منتهية مغلقة.

أمّا عـدا ذلك من القضايا المتصّلة بالمتكلّم (Sujet) أو بالمحيط السياقي الخارجي وغير ذلك فهو متروك خارج البحث اللّساني البنوي الوظيفي، فاللّغة عند مارتني إذًا بناء مغلقٌ تنتظم فيه الوحدات انتظامًا

مخصوصًا تحكمُه قواعد معيّنة يسير في اتجاهين مختلفين أفقي (Syntagmatique) وعمودي (Paradigmatique) تظهر من خلالها الوظيفة عن طريق التقابل والاستبـدال.

وإنْ كـان هُنـاك مفهـوم ينسـجم مـع هـذ الآراء الوظيفيـة لا نجـد أنسـب مـن مفهـوم الـنّظم عنـد الجرجـاني، وهـو يقصـد بـه ذلـك الجمـع والتّـأليف الّـذي يحصـل بـين الكـلمات والجُمـل، فـالنّظم عنـده لا يتحقّـق بالألفـاظ منفـردَةً (علـى غـرار الوظيفيـة) ولكـن علـى اعتبـار اللّغـة مجموعـة مـن العلاقـات " فالألفـاظ المفـردة الّتي هي أوضـاع اللّغـة لـم توضـع لتعـرف معانيهـا في أنفسـها، ولكـن لأنّ يُضَـمَّ بعضـها إلى بعض ليُعرف ما بيْنها من فـوائد " .[2]

إنّ هذا التّصور البنوي في غاية من الوضوح يُشير من خلاله الجرجاني إلى الوظيفة التواصلية للّغة، لأنّ الإنسان لا يُمكنه أن يتواصل بمفردات معزُولة ومنفردة، وإنّما بإنشاء كلام يُؤدّي أغراضًا تبليغية تواصلية، هي التّي اصطلح عليها بالفوائد.

وبهذا نرى الجرجاني أميل إلى الجانب الاستعمالي للغة أو مع يعرف بمستوى الكلام، لأنّه المستوى الّذي تتفجر فيه الطاقات الكامنة للألفاظ عند ورودها في سياقات مختلفة، وهي متجاورة في بنية لغوية معيّنة لتؤدّي دلالات مختلفة حسب قصد المتكلم " إذْ ليس الغرض بنظم الكلام أَنْ توالتْ ألفاظها في النّطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل" .[3]

فالنّظم إذًا تناسق واتفاق بين الكلمات تجري في التراكيب الكلامية الّتي تربط بين عناصرها علاقات التآلف والاتّساق.

ولقد شبّه الجرجاني منذ عصور قديمة اللّغة بالبناء إذ يقول " واعلم أنّه ممّا هو أصل أن يَدّق النّظر ويَغمض المسلك في توّخي المعاني الّذي عرفت : أنْ تتحِدّ أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتدُّ ارتباط ثانٍ منها بأوّل، وأن يحتاج إلى أن تضعها في النّفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع في يمينه هُنا في حال ما يضع في يساره، وفي حال يُبصره كان ثالثًا ورابعًا يضعها بعد الاوّليْن " .[4]

فتشبيه الكلام بالبناء أكثر ما يكون مفهومًا مُقاربًا لمفهوم التعالق البنوي (Relation Structuralisme) عند الوظيفيين الّتي تتحدّد عن طريق مجموعة من العلاقات فيما بين العناصر " فلا العنصر ولا الكلّ يمكنه أن يشكّل البنية، بل إنّ الذي يشكّل البنية هو العلاقات فحسب " .[5] وهذا التّحديد هو الّذي عبّر عنه الجرجاني بالارتباط للتّعبير عن العلاقة، والبناء للتّعبير عن الكلّية (Totalité) الّتي تعتبر الرّكيزة الّتي تقوم عليها المفاهيم البنوية عمومًا والوظيفية خصوصًا.

كما وصف الجرجاني اللّغة على أنّها نظام تحكمه قواعد وقوانين موجودة في ذهن المتكلّم ونفسه فيقول : " وذلك يعني تفكيك الأجزاء وبعثرتها، ثمّ إعادة ترتيبها هندسيًا، فالترتيب العشوائي حاله كحال من يرمي الحصى ويَعـدُّ الجوز " .[6]

فإذا كان البناء عنده هندسة تنتظم فيها اللّبنات، فإنّ اللّغة نظمٌ تنتظم فيه الكلمات وتتراصُ على غرار البناء، وتتعالق في واقع كلامي تجسّده الأبعاد الأفقية والرأسيّة، الّتي يُسميها خطوط الطول والعـرض.

والخلاصة : فإنّ اللّغة عند الجرجاني وسيلة تواصلية تستعمل الألفاظ لإثارة صور ذهنية كامنة لدى مستعمليها باعتبارها مجموعة من العلاقات تتحقّق في سياقات مختلفة لا تنفصل في البنية اللّغوية التي تتفاعل ضمنها.

إنّ المتتبّع لِمَا ورَدَ عند الجرجاني في مسألة النّظم لا يكادُ يفصل بين ما حقّقه هذا اللّغوي في قرون بعيدة انعدمت فيها الوسائل الحديثة وجادتْ فيها الهمّة والقريحة بمفاهيم نجدها أقرب ما تكون إلى أهمّ مبادئ البنوية، وأخصّ خصائصها.

ثانيًـا / الاقتصاد في اللّسان بين الوظيفية والعربيّـة:

يُعتبر التّقطيع المزدوج من أهمّ المبادئ الوظيفية الّتي طوّرها مارتني عن رائد اللّسانيات البنوية (فرديناند دي سويسر) يهدف منه إلى تحقيق الاقتصاد اللّغوي، باعتباره السّمة الّتي تميّز اللّغة البشرية، وتختّص بها دون غيرها، وبفضله يستطيع الفرد أن يُنشئ عددًا لا محدودًا من الوحدات الدّالة والجُمل المُفيدة بواسطة عدد محدود من الفونيمات يقول مارتني : " بإمكاننا لكلّ حالة ولكلّ تجربة بشرية، ولكنّه يكفي المرأ أن يتذكر التعدّد اللاّنهائي لمثل هذه الحالات والتّجارب، كي يقتنع أنّ مثل هذا النّظام لا بدّ أن يشتمل على أعداد هائلة من الدّلائل المختلفة ممّا يفوق قدرة العقل البشري على الاستيعاب " [7]. ويرى مارتني أنّ مبدأ الاقتصاد اللّساني (L'économie linguistique) يكون أكثر وضوحًا في التّقطيع الثاني، إذ يقرّر أنّه " يُمكننا أن نُلاحظ ما يمثّله التّقطيع الثاني من اقتصاد فإنّ كان علينا أن نعطي لكل وحدة صغرى إنتاجًا صوتيًا خاصًّا وغير قابلٍ للتّحليل، فإنّه يُلزمنا لأنْ نميّز بين الآلاف منها وهو ما لا يتوافق مع القدرات النّطقية ولا مع حالة السّمع عند الإنسـان " .[8]

وانطلاقًا من قوله هذا فقط حرص مارتني على أن تتمّ عمليّة الأداء الكلامي والوظيفة التّواصلية للّغة بأقلّ جُهد ذهني وبدني ممكن، هذا الّذي يراه يتحقّق بالتّقطيع المزدوج لأنّ " هذا التّقطيع يُوجد في كلّ الألسـن الّتي تمَّ وصفها إلى اليـوم ".

يظهر أنّ هذا التنظيم قد فَرَضَ نفسه على المجموعات البشرية بصّفته الأنسب إلى حاجات الإنسان، لا لشيء غير الاقتصاد النّاجم عن التقطيعين يُمكّن من الحصول على أداة التّبليغ، أداة ذات استعمال عام قادرة على استعمال المعلومات بمقدار مهول وبجهد زهيـد " .[9]

وإذا عرّجنا على تراثنا اللّغوي عند العرب القدماء، نجدهم ميلهم إلى اقتصاد اللّسان واضحًا في دراستهم، إذْ كانوا يسعون إلى تحقيقه من تحليلهم لكثير من الظواهر اللّغوية، كالإبدال والإدغام والحذف وغيرها. وذلك طلبًا لاختصار الكلام وتوفير الجُهد. فالإدغام مثلاً عند سيبويه ضرورة يقتضيها اللّسان حتّى يكون عمله من وجه واحـد.

ومن أهمّ مظاهر الاقتصاد اللّغوي في العربية ما يعرف عندهم بالإيجاز أو الاختصار، الّذي يُعتبر وظيفة تهدف إلى إيصال المعنى المطلوب، بأقلِ قدرٍ من الكلمات. ويتحقّق ذلك عندما تنوب وحدة صرفية واحدة

عن مجموعة من الكلمات في تأدية المعنى وتحقيق الوظيفة النّحوية من جهة، وفي التّحكم في امتداد الجُملة من جهة أخرى.

ولنا أن نشرح ذلك بأمثلة من الاستعمال العربي، فللضمائر مثلاً دور بارز في تحقيق الاختصار والإيجاز والاقتصاد في الكلام، " فهي أخصر الظواهر وخصوصًا ضمير الغيبة، فإنّه يقوم مقام أسماء كثيرة، فهو في قوله تعالى : ﴿أعَدَّ لَهُمُ مَغفِرةً " قام مقام عشرين ظاهرًا﴾.[10]

فللضمير إذًا دور بارز في الإيجاز ومن بعده الاقتصاد في الجُهد النّاجم عن قيامه بوظيفة الظاهر، الّذي قد يتعدّد ويكثر، فيُؤدّي ذلك إلى امتداد الجُملة وطولها، وتداخل العلاقات النّحوية بين عناصرها فإذا ناب (الضمير) عن الظاهر من الأسماء أغنى عن ذلك كلّه.

كما يلجأ المتكلّمون باللّغة أحيانًا إلى الاستغناء عن بعض العناصر في التّركيب وحذفها، وذلك اعتمادًا على فهمها من السيّاق العام للكلام، كحذفهم للخبر من الجُملة الاسمية إذا أصبح معلومًا لدى السّامع، وكان ذِكره بلا فائدة لأنّه فَقدَ الأسباب الدّاعية إلى وجوده في التّركيب، وهو إفادةُ المتلّقي بحُكم يجهله.

إنّ سعي الأوّلين وطلبهم للاختصار في كلامهم تحقّقُه وتُؤكّده الشواهد الكثيرة في متونهم ومؤلفاتهم، وها نحن نكتفي بالنّظر القليل منها فقط للدّلالة على هذا الاهتمام.

ثالثا / التّقديم والتّأخير ووظيفة الإعراب:

يُعتبر الإعراب خصيصة تنفرد بها اللّغة العربية دون غيرها من اللّغات الأوروبية الّتي تعرّضت لها المدرسة الفرنسية بالدّرس.

ويُؤدي هذا الأخير دورًا هامًّا في التّفريق بين معاني الكلام، والحفاظ على المعنى التّركيبي (الجُملي). فالإعراب قرينه تجعل العربيّة تتمّتع بالحريّة في الحركة والمرونة عن طريق تغيير مواضع الكلمات ومواقعها دون إخلالٍ بالمعنى ولا إفساد " لأنّ الأسماء لمّا كانت تعْتورُها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومُضافة ومُضافًا إليها ولم تكن في صورتها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، بل لمّا كانت مشتركة جُعلت حركات الإعراب فيها تُنبئ هن هذه المعاني " [11]. فالإعراب إذًا من العلوم الّتي خُصّت بها لغة العرب، وهو الفارق بين الكلمات المُتشابهة البناء في المعاني. كما تكشف العلامة الإعرابية عن هذه المعاني النّحوية باعتبارها قرينة لفظية يستدلّ بها على الوظيفة النّحوية للكلمة، وإنْ تغيرّ موقع هذه الكلمة وتبدّل موضعها في الجُملة.

" وكذلك سائر المعاني جَعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم، ويقدّروا الفاعل إنْ أرادوا ذلك والمفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالةً على هذه المعاني " .[12]

إنّ العلامات الإعرابيّة التي تقع على أواخر الكلم إنّما هي أمارات ودلالات للإبانة عن المعنى والوظيفة للوحدات الدّالة في التّركيب (الجُملة). وقد عرّف ابن جني الإعراب " إنّه الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنّك إذا قلت (أكرمَ زيدٌ أباه) و(شكر سعيد أباه) علمت برفع أحدهما ونصب الآخر، الفاعل من المفعول ولو كان الكلام شرحًا واحدًا لاستبهم أحدهما من صاحبه " .[13]

وإن تعذّر الإعراب في بعض الوحدات الدّالة أو استثقل ناب عنه الموضع، وذلك في مثل (ضَرَبَ موسى بُشرى) فتكون الفاعلية للأوّل لتقدّمه والمفعولية للثاني لتّأخره.

والنُّحاة من العرب القُدامى يجعلون الإعراب نتاجًا للعامل، وأثرًا يتخلّف عنه " فالإعراب هو الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أوّلها " [14]. فهو إذًا " الأثر الظاهر الذي يَجلبُه العامل في المحل الإعرابي ". [15]

والقول بأثر العلامة الإعرابيّة في المعنى عليه إجماع النُّحاة العرب (إلاّ قطرب) الّذين درسوا الظاهرة وفصّلوا في البحث عن دورها وأفردوا لها الشروح والمُؤلفات على نحو ما نجد عند ابن جني في خصائصه، وسيبويه في كتابه، ثمّ ما ورد جُملةً وشرحًا وتفصيلاً عند الزّجاجي في كتابه (الإيضاح في علل النّحو).

وعلى هذا الأساس يمكن أن نجمل وظائف الإعراب في :

- يُعتبر سبيل تحديد مُختلف الوظائف النّحوية وإظهارها في الجُملة، كالفاعلية والمفعولية والإضافة والتبعيّة.

- يُعتبر سبيلاً للإيجاز إذْ إنّه يُضيف لمعنى الكلمة المعجمي معنى آخر نحوي بعلامته فقط.

- يُعتبر مظهرًا لمرونة اللّغة العربيّة يسهل بفضله التّقديم والتّأخير والحذف حسب مقاصد الكلام دون إخلال بمعناه.

- تقوم الحركة الإعرابية بدور الحرف نفسه، فتغيُرها يُغيّر المعنى على غرار الحرف، ويرى الزجاجي أنّ لعلامات الإعراب دورًا وظيفيًا في تحديد الدّلالات.

رابعـا / الموضع والرّتبة بين العربيّة والوظيفيـة:

اللّغة الإنسانية ليست مجرّد كلمات مرصُوفة لا يجمعها نظام، وإنّما هي نسيج من العلاقات، وعند استخدام اللّغة لا بدّ من اختيار المفردات المناسبة لموقف الكلام، ثمّ يُؤلَّف بينها في هيئات تركيبية محكومة بقواعد خاصّة بكلّ لغة وتحدّدُ رتبة كلّ عنصر منها بالنّظر إلى بقية العناصر اللّغوية الأخرى.

ولا خلاف بأنّ هُناك تباينًا بين المنهجين النّحوي العربي والوظيفي الأوربي في هـذا المجال.

والرّتبة معناها : الموقع الذِّكْرِي للكلمة في الجُملة، وهي علاقة موضعية بين جُزأين مرّتبين في مقام الكلام، إذْ يدلّ أحدهما على معنى الآخر ووظيفته النّحوية.

فالجُملة عند مارتني فيها المُسند الّذي يُعدّ المُونيم الأساسي والمركزي في التّركيب الإسنادي " إذْ يمثّل وحدة خاصّة تتلاقى عندها جميع العلاقات المُؤدية لوظيفة التبعيّة " [16]. وأمّا المسند إليه الّذي يراه الرّكن الثاني في التّركيب، ولا يصّحُ تقديم أحدهما عن الآخر مُطلقًا، لأنّ الرُّتبة -عند مارتني - دليل الوظيفة النّحوية.

والرّتبة في العربيّة تمثّل عُنصرًا أساسيًّا من العناصر الّتي يقوم عليها تحديد الوظيفة النّحوية في اللّغة العربيّة " إذْ تشكّل مع المعنى النّحوي والشرط الصّرفي والبُعد الدّلالي للوظيفة النّحوية وسائل تُعيّن تلك الوظيفة وتميّزها عن غيرهـا ". [17]

وقد عَنِيَّ النّحو العربي بقضية الرّتبة، إذْ ورد في تُراثنا المنقول من كُتب الأوائل. فإنْ تقدّمت إحدى الكلمات عن موضعها المقرّر لها قيل : إنّها متقدّمة لفظًا متأخرّة رتبةً وإنْ تأخّرت عن موضعها قُلنا : تلك متقدّمة رتبةً وإنْ تأخّر لفظها.

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلماءُ﴾يُقال في المفعول به (لفظ الجلالة) متقدّم لفظًا متأخّر رتبةً.كما أنّ الفاعل (العُلماءُ) متأخّر في اللّفظ متقدّم رتبـةً.

ونخلص أنّه إذا كان للموضع دوره البالغ والهام في الجُملة في اللّغات الأوربيّة، باعتباره المُتحكّم في الوظيفة النّحوية، والّتي ترى رُتبة الأسماء والأفعال فيها واضحة. فهي تقدّم الأسماء على الأفعال وتمنع تأخير الفاعل عن الفعل، كما ترى من غير المعقول تقديم المفعول حتى لا تصير الجُملة لا معنى لها. فإنّ للجُملة العربيّة حرّية التقيّد بالموضع أو تغييره، وهذا بفضل الإعراب ودورهِ في التّفريق بين الكلمات ومعانيها ووظائفها النّحوية.

خامسا / اللّغة ووظيفتها بين مارتني و ابن جني:

لم يختلف عُلماء اللّغة - وكثيرًا ما اختلفوا - حول قضية من القضايا، كما اختلفوا حول تعريف اللّغة، وقد وقف هؤلاء (قديمًا وحديثًا)، أمام ظاهرة اللّغة لأهميّتها، وانكبوا على تفسير مبهمها وفك غموضها مُحاولين الكشف والتّحليل والتّفصيل والتّعليل، فكان نتاج هذه الجهود أن توصل بعضهم إلى وضع تعريف لها، واكتفى آخرون بالوصف دون التّعريف والتّحديد.

وفق هذا، تباينت التّعريفات واختلفت أو تقاربت وتداخلت وتشابهت في تاريخ الفكر اللّغوي، وهذا تبعًا لتنوّع المدارس اللّغوية والفكرية وتباين أفكار من ينتمي إليها من علماء اللّسان وغيرهم ممّن اهتّم بموضوع اللّغة ووظيفتها.

لقد عالجت الوظيفية الأوروبية وخصوصًا عند رائدها البارز (أندري مارتني) اللّغة الإنسانية على أنّها رسالة ذات وظيفة في المجتمع باعتبارها " ذات طابع غائي، إذ هي جهاز وظيفي، ووسيلة من وسائل التعبير غايته أن يحقق متكلم اللّغة ما ينوي إيصاله أو التّعبير عنه ".[18]

فاللّغة عند مارتني قاعدة إنسانية مشتركة، وبنية لغوية وظيفتها الاتصال بين البشر، وتعدّ اللّغة الفرنسية - في رأيه - " الجهاز الّذي يسمح للفرنسيين بالاتصال، ويسّهل تبادل الفهم بين المخاطب والمتلّقي، زيادة على دعمه للفكر وإظهاره من عقل المتكلم وذهنه إلى واقع السّامع وفهمه "[19]. ويعرّفها (اللّغة) بأنّها " أداة تبليغ يحصل بقياسها تحليل خبرة الإنسان، على خلافٍ بين جماعة وأخرى، وينتهي هذا التّحليل إلى وحدات ذات مضمون معنوي وصوت ملفوظ متعاقبة. وهي العناصر الصوتية الّتي يكون عددها محصور في كل لغة "، وتختلف هي أيضًا من حيث ماهيتها والنّسب القائمة بينها باختلاف اللّغات ".[20]

وباستقراء هذا القول، يُمكننا استخلاص الحقائق التالية :

الوظيفة الأساسيّة للّغة - عنده - هي التّواصل والتبليغ، بين أفراد المجتمع اللّغوي.

" فالوظيفة الأساسية لهذه الأداة الّتي هي اللّغة : هي عملية التواصل " .[21]

- اللغة مؤسسة إنسانية، تختلف بنيتها بين المجتمعات " فهي مؤسسة إنسانية ... تهدف أساسًا إلى تحقيق التكيّف الأوفر لدى الجماعات التي تتكلّمها " .[22]

- إنّ اللّغة عند مارتني، تعبير عن خبرة الإنسان وتجسيد لها، " إذ يراها ليست مجرّد نسخٍ للواقع، بل هي بُنى مُنّظمة. يتطلّع المتكلم من خلالها إلى عالم الأشياء والأحاسيس. وبذلك تتكوّن الخبرة الإنسانية " .[23]

وفي الأخير نخلص إلى أنّ اللّغة عند مارتني، وظيفتها التبليغ والتّواصل [24]. إذْ هي صورة مادّية وواقعة اجتماعية، تعبّر عن خبرة الإنسان وفق بنية رمزية تخضع لنظامٍ لغوي متميّز.

إنّ هذا التّفسير الذي وضعه مارتني لوصف اللّغة وتحديد وظيفتها في عصرنا الحديث الذي تقدمت فيه مناهج البحث اللّغوي ووسائله، قد وُجد ومُنذ آلاف السّنين في تراث العرب الأقدمين. وإنّ من أشهر التّعريفات وأكثرها قِدَمًا في التراث اللّغوي العربي، التّعريف الّذي ورد في كتاب الخصائص، عند العلامة اللّغوي أبي الفتح بن جني، والذي لا يكاد يفترق عن وصف مارتني للّغة في شيء، رغم تباعد الزّمن وتقادم العهد بينهما. إذ يعرّفها في (باب القول على اللّغة وما هي ؟) :

" فأمّا حدُّها : فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم " [25]. ومن خلال هذا التّعريف يُمكن استخلاص جُملة من الحقائق، المتصّلة باللّغة على أنّها :

- ذات طبيعة صوتية.
- تعبير عن الأغراض والتّجارب الإنسانية.
- تقوم بوظيفة اجتماعية، إذ تمثل أداة ووسيلة اتصال.

تختلف بين الأقوام (من مجتمع لآخر).

وصفوة القول : اللّغة عند ابن جني، لا تختلف عنها عند مارتني في طبيعتها ووظيفتها إذْ إنّها - عندهما - ظاهرة إنسانية عامّ، هدفها تحقيق التّواصل وحصول التبليغ.

خاتمة:

إنّ هذه القضايا الّتي طرحناها في هذا المقال نراها الدّليل على أنّ الدّراسات العربيّة كثيرًا ما تقترب قضاياها من الطرح اللّساني الحديث نحاول أن نلخصها في النّقاط الآتية :

- عالج الوظيفيون اللّغة على أنّها بنية ونظام تتعالق فيها الوحدات لتؤدّي وظيفتها وهذا نجده يُشبه مفهوم النّظم عند الجرجاني الّذي شبّه اللّغة بالبناء، ويقومُ هذا البناء على الجمع والتّأليف بين الحروف والكلمات والجُمل لتحقيق الفائدة.
- يُعتبر الاقتصاد اللّساني هدف الوظيفيين الأوّل الّذي يسعون إلى تحقيقه في كلامهم، ونجد العرب قد طلبوه قبلهم في ميلهم إلى الإيجاز والاختصار في الصوت والكلمة والجُملة.

- إذا كان الموضع هو أساس تحديد الوظيفة عند مارتني، فإنّ النّحو العربي أعطى للرُّتبة أهميّة بالغة،

لأنّ الكلمة تظهر قيمتها من خلال رُتبتها في الكلام.

- انفردت اللّغة العربيّة بظاهرة الإعراب وهي قرينة لغوية وظيفية تجعل التّركيب العربي حرًّا مَرِنًا، تتغيّر فيه مواضع الكلمات تقديمًا وتأخيرًا دون إخلال بالمعنى ولا إفسـاد.

الهوامـش:

[1]. ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النّجار، دار الفكر، لبنـان، 1983.ج 1، ص. 35.

[2]. ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، عالم الكُتب، ط 3، ج 1، ص. 72.

[3]. الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تقديم : على أبو زقية، موفم للنّشر، الجزائر، ط أنيس، 1991، ص. 91.

[4]. الجرجاني، نفسه، ص. 94.

[5]. جلال الدّين السيوطي، الأشباه والنّظائر في النّحو، مكتبة العصر، لبنان، ط 1، 1994، ج 1، ص. .70

[6]. الزجاجي، الإيضاح في علّل النّحو، تحقيق مازن المبارك، دار النّهضة، القاهرة، 1959، ص. 70.69-

[7]. السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، منشورات رابطة القلم، دمشق، ط 2، ص. 42.

[8]. الطيّب دبة، مبادئ اللّسانيات البنوية، دار القصبة للنّشر، الجزائر، 2001، ص. 189.

[9].الطيّب دبّة، المرجع السابق، ص. 41.

[10]. عاطف مذكور، علم اللّغة بين التراث والمُعاصرة، دار الكُتب، الإسكندرية، ص. 194.

[11]. عبد القاهـر المهيري، نظرات في تراث اللّغوي العربي، منشورات الغرب الإسلامي، لبنان، ط 1، 1993، ص. 236.235-

[12]. مارتني، مبادئ في اللّسانيات العامّة، ترجمة الزّبير سعدي، دار الآفاق، الجزائر، ط 3، 1980، ص. 147.

[13]. مارتني، نفسه، ص. 21.

[14]. نفسـه.

[15]. نفسـه، ص. 127.

[16]. نفسـه، ص. 93.

[17]. نـور الهدى لوشـن، مباحث في علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص. 365.

[18]. نور الهدى لوشـن، المرجع السـابق، ص. 347.

[19]. André Martinet, la linguistique synchronique, édition Seuil, paris, 1970, p. 4.

[20]. مارتني، المبادئ، ص. 13.

[21]. مارتني، المبادئ، ص. 13.

[22]. نفسـه.

[23]. لوشـن، المرجع السابق، ص. 359. ويرى مارتني أنّ تعلّم لغة أجنبية لا يعني وضع دوال وعلامات (Etiquettes)، جديدة للأشياء المُتداولة فقط عند المتكلم، بل هي الرؤيا المفارقة للواقع، من خلال البُنى التركيبية الجديدة المكتسبة.

[24]. كما أنّ للّغة عند مارتني، وظائف ثانوية، يراها شديدة الالتصاق، بوظيفة الإتصال، كالجمالية والتّعبيرية والانفعالية، وكل هذه الوظائف تناولها كذلك رومان جاكبسون، في دراساته البنوية حول الأدب، للتعمّق يُنظر : حول - معالجة جاكبسون لوظائف اللّغة - خضر ناظم عـودة : الأصول المعرفية لجمالية التّلقي، منشورات الجيل، لبنان، ط 1، 2001، ص. 42-47.

[25]. ابن جني، الخصائص، ج 1، ص. 32.

قائمة المراجع :

.1ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النّجار، دار الفكر، لبنـان، 1983.ج 1.
.2ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، عالم الكُتب، ط 3، ج .1
.3الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تقديم : على أبو زقية، موفم للنّشـر، الجزائر، ط أنيس، 1991.
.4جلال الدّين السيوطي، الأشباه والنّظائر في النّحو، مكتبة العصر، لبنان، ط 1، 1994، ج 1.
.5الزجاجي، الإيضاح في علّل النّحو، تحقيق مازن المبارك، دار النّهضة، القاهرة، 1959.
.6السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، منشورات رابطة القلم، دمشق، ط 2.
.7الطيّب دبة، مبادئ اللّسانيات البنوية، دار القصبة للنّشر، الجزائر، 2001.
.8عاطف مذكور، علم اللّغة بين التراث والمُعاصرة، دار الكُتب، الإسكندريـة.
.9عبد القاهـر المهيري، نظرات في تراث اللّغوي العربي، منشورات الغرب الإسلامي، لبنان، ط 1، .1993
.10مارتني، مبادئ في اللّسانيات العامّة، ترجمة الزّبير سعدي، دار الآفاق، الجزائر، ط 3، 1980.
.11نـور الهدى لوشـن، مباحث في علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، 2002.
.12خضر ناظم عـودة : الأصول المعرفية لجمالية التّلقي، منشـورات الجيل، لبنان، ط 1، 2001.